كان الصعود صعباً فوعد أن يطلعني بالأسانسير، خفية عن صاحب العمارة، وذلك جعل العمل أكثر سهولة. ثلاث مرات في الاسبوع. قلت لنفسي إن ذلك شيء جيد، وأن الله يسرها... ولكن بعد شهر وثلاثة أيام...»[١٤٥]. ويجيء صوت الراوي ليكمل الحكاية، متحدثاً عن أم سعد بضمير الغائب، أو مقدماً لصوتها ولصوت المرأة اللبنانية بعبارتي: قالت أم سعد، قالت المرأة، حاملاً صوتيهما بين ثنايا صوتـه، فتتـوحـد رؤية الراوي، مع رؤية أم سعد، ويتبدى تعاطفه العميق مع موقفها، ومع المرأة اللبنانية. ومع تواصل السرد ندخل الى العمارة بوصفها مكاناً لوقوع الاحداث: «كانت أم سعد قد وصلت، نازلة، الى الطابق الثالث، لاهثة وراء المـاء ورغوة الصابون وبرد الشتاء يقرص قدميها الحافيتين. بلحم كفيها المضرجتين بآثار أحذية الصاعدين والهابطين كانت تفرك الارض الرخامية وسط ليل الناس النائمين عميقاً في دفء غرفهم المترامية وراء الابواب المغلقة، وفجأة أحست بامرأة تقف وراءها مكتّفة ذراعيها على صدرها ناظرة اليها بإمعان، كأنما كانت تنتظرها هناك منذ دهر...»[١٤٦].

لا شيء في هذا النص بلا دلالة على التضاد، اذ لا يعود التضاد قاصراً على بيت أم سعد وعمارة وسط المدينة، بل إنه يتعدى ذلك ليصير في تشابك وتفاعل، تضاداً بين أم سعد نفسها من جهة، وبين العمارة وسكانها، معاً، من جهة أخرى. إذ يصبح جسد أم سعد نفسها، وحالتها، بنية تقف على الحد النقيض للعمارة كبنية هندسية، ولسكانها كأجساد ونفوس تنعم بالرفاه والراحة؛ فأم سعد تعمل في تنظيف الدرج في عزّ الليل، وعزّ الشتاء، هي تعمل وسكان العمارة «نائمين عميقاً»، يقرص برد الشتاء قدميها الحافيتين وهم ينعمون «في دفء غرفهم»، تلسع وجهها وجسدها تيارات هواء جارف في عراء السلم البالغ الارتفاع وهم يسكنون الى «غرفهم المترامية وراء الابواب المغلقة»، تركض لاهثة وراء رغـوة الصـابون وهم في بيوتهم يسترخون أو يستغرقون عميقاً في النوم، يتضرح لحم كفيها بينما الارضية الرخامية للعمارة، ناعمة ملساء، وآثار أقدام الصاعدين والهابطين من سكان العمارة تزيده تضرجاً، هي نازلة وحسب، وهم صاعدون هابطون. هكذا تتبدى أم سعد في مقابل سكان العمارة، وعلى هذا النحو تتبدى صورة بيتها «غرفة الصفيح المشطورة»، في مقابل عمارة عالية، في وسط المدينة، تنعم بأبهج الصفات والمواصفات: سبعة أو ثمانية طوابق، مدخل، سلم طويل وأرضيات رخامية، مصعد ـ أسانسير على حدّ تعبير الناطور وأم سعد بعده! ـ أبواب مغلقة، تدفئة، وموقع مناسب على طريق واسع في وسـط مدينة مضاءة... وترى أم سعد الى هذه العمارة ومواصفاتها، بأندهاش بالغ يدفعها الى القول: «تلك العمارة الكبيرة تسوى أكثر من ألف ليرة، أكثر بكثير»[١٤٧]، وهل ثمة ما هو أكثر عمقاً من هذا القول البسيط للدلالة على التضاد الحاد، وتوليد فاعلية التباين الى أقصى حدّ ممكن؟

بعد حوارها مع المرأة اللبنانية تكتشف أم سعد أن هذه المرأة كانت تعمل في البناية نفسها قبل ان يستقدموها للعمل، وأنها كانت تتقاضى سبعة ليرات، وليس خمسة كما يدفعون الآن، فيدور في ذهنها ـ أي في ذهن أم سعد ـ ان صاحب البناية بالتواطؤ مع الناطور قد استخدموها بدلاً من المرأة اللبنانية لتوفير ليرتين... فقط! وإذ تعرف أم سعد أن المرأة اللبنانية هي من فقراء الجنوب، وأنها تقوم بتربية أربعة أولاد، تقرر ترك العمل، وتطلب الى المرأة ان تكمله، وأن تطلب من صاحب البناية ان يدفع لها أجرة الاسبوعين الاخيرين التي لم تتقاضاها أم سعد، وكأنها بذلك تكفّر عن ذنب لم تكن لها يد في ارتكابه، وتغادر أم سعد البناية، قلقة، الى ان تسمع صوت الماء يتدفق من جديد، فتعرف أن المرأة قد باشرت العمل، فترتاح قليلاً، الا ان دموعها تغلبها وهي تخرج الى الطريق.

يتعمّق في وجـدان أم سعـد احسـاس عارم بالاستغلال والظلم، فإذ يخرج الراوي معها كي